

الأمثال العامية العربية

والفلسفة الشعبية

وعلوما طريفة ، ووحى يوحى إلى العقل الذى أحاطت به التقاليد وعزبت عنه الثقافة العصرية وارتطمت به شتى المعتقدات جنوحاً إلى الإبداء الطريف ببرهان سليم مع ثقة بالنفس واعتماد على خبرة السنين ، ونزوعاً إلى التفلسف بسرود مشوق واستنتاج طارف وإدراك جديد .

والأمثال العامية التى يتداولها الشعب ويعياها أبناؤه فى صديدهم وتسرى فى أوساطهم وتمثل بها ألسنتهم ولا تخلو منها مجالسهم هى صورة صحيحة لناحية من التفكير الشعبى وبرهان ساطع على بزوغ الحكمة من بيشته والاشتغال بالفلسفة بين ظهرانیه .

ونحن نجد إذا تصفحنا هاتيك الأمثال أن أكثر المثل الصحيحة والأصول القويمة مجسمة فيها مطبوعة على صفحتها نابضة من كلماتها نابضة من ألفاظها .

والشعب ينجح إلى أمثاله إن أعيتته مشكلة يريغ حلها أو

للشعب فلسفة تستحق الدراسة الطويلة وتستحوز على لب المفكر العصرى ولا تخلو من الإمتاع بل فى لمسها والتمعن فيها والإلمام بها كل متعة وتشويق . . وتبدو هذه الفلسفة عجيبية طريفة من أحياء الشعب فى أفعاله وأقواله وتنبئ مع حياته وحيويته وتبزع من سكناته ولفاته وتترامى من إشاراته كما تترامى الشمس من أفق الصباح وتحقق فى حركاته خفقان الفؤاد المكلوم وقد أحرقه الهيام فاهتز كما يهتز الفيلسوف .

الببئة الشعبية مصدر زاخر بكل فيض ، فياض بكل وحى ، ومنبع سائغ تستقى منه الحياة الاجتماعية مبادئها وخطوطها الرئيسية وتمص منه الفلسفة ماء حياتها وحياة روحها وروح حركتها ، ومورد عذب ترتوى منه حكمة الدهر وتنشئ منه بسكرة الدقة والجدة وبرضاب الإمتاع والاتزان ، وإلهام يلهم الجهل أحكاماً غريبة وميولاً عجيبية

النائبات ، وإن الذكريات لتعود بى إلى ذلك اليوم الأسود الذى ضجت فيه الرايات الصليبية على الأقصى واستتب لهم الأمر حوله ، حتى خيل إلى بعض طغاة الممتدين الأثمين أنه قد أصبح من مدينة محمد قاب قوسين أو أدنى فبات يمنى نفسه بقرب القضاء على الإسلام فى مهده ، حتى إذا أصبح كان ينزل أشد ضروب التعذيب والتنكيل بقافلة مسلمة مؤمنة فى طريقها لأداء فريضتها .

وهناك من على سواحل البحر الأحمر درت صيحة من حرة مسلمة مؤمنة ، جرح كرامتها باغ شرير .

« يا محمد !! » .

فاضطرب العالم الإسلامى لهذه الضجة واهتزت أرجاؤه ، فإذا بسهول حطين على ضفاف بحيرة طبريا ، تهتز لتلك الضربة القاضية التى هوى بها رجل مؤمن من رجال محمد على رأس ذلك الباغى الذى كان آخر ما سمعه ، ضجة مدوية ، دوت فى أنحاء العالم الإسلامى فرددت

صداها أقطار أوروبا :

« هاأنذا أتقيم لمحمد . »

وهانحن أولاء نشهد اليوم الرايات الصهيونية الصليبية تخفق على المسجد الأقصى وهذه طلائعهم قد وصلت الثغر الحجازى إياه ، وإنى لأتسمع من أطراف العالم العربى والإسلامى : صيحات من حرائر مسلمات مؤمنات سلبت كرامتهن وثلم عفافهن ؛ صيحات تتجاوب أصداؤها فى أجواز الفضاء :

« يا محمد !! » .

فرددى يسهول حطين ، رددى يسهول حطين ، وتجلى ياروح صلاح الدين ، تجلى على فلسطين ، فقد برح الداء ، وطال الآنين .

الكويت

ربمعى العارف

المدرس فى المدرسة الشرقية

قابلته معضلة يود تحليلها أو ارتطمت بواقعه صورة يريد أن يدقق النظر فيها ، والشعب يرجع إلى أمثاله إن أراد أن يبرهن على خبرته ودقة تجاربه ، وإذا حارل أن يدل على صحة قول أو على صحة إدلاء ، والشعب يهرع إلى جمعة أمثاله ليستخرج منها ما يلائم متباين المواقف ويختلف الظروف ليطبّع القول بطابع الصدق ويمرّه بريشة « القضية المسلية » أو بريشة « الفصل الختامى » .

فكأن أمثال الشعب مرجع للناس ومعجم لمشاكلهم ودائرة معارف لأعمالهم وقاموس يصحح أفعالهم ويبرر أقوالهم ، أو هى الحكم العدل فى قضايهم بل هى القاضى الذى يحكم بينهم أو هى قوانين القاضى إذا اعتبرنا الشعب قاضياً وجعلنا بيئته وأحاديثه ساحة القضاء .

والأمثال العامة تتجمع عادة فى ذاكرات العجائز الشمطאות ، وهى عندهن أوفر عدداً وأكثر تداولاً واعتياداً وأصح أصلاً ، أى أنها تكون حين تصدر عن هؤلاء العجائز صادرة من المصادر الموثوق بها ، أما الشبان فيستعملون من الأمثال العامة أقلها ويستعيضون عن معرفة الكثير منها بما يتأثرون به ويعجبون به من الأمور والمظاهر الجديدة ، التى لا يألفها الكبار والشيوخ والعجائز الشمطאות ، فالعامة من الشبان والشابات يميلون إلى التأثر بالأغاني الشعبية ويأخذون منها ويشغلهم ذلك عن الاهتمام أو عن المران على استيعاب كثير من أمثال العجائز العميقة التى تحتاج فى بعض الأحيان إلى تفكير وإلى تمنع أو إلى اتزان وروية تتنافى مع حميتهم وحيويتهم واندفاع شبيبتهم الطائشة ، فتراهم يهتمون أو ينغمرون فى الأغاني وخاصة الشعبية ويقبلون عليها ، وربما أخذوا من عباراتها التى تروقهم ويحسن وقعها عندهم أو تحسن موسيقاها فى صدورهم أمثالاً يتداولونها ويتغننون بها ويدللون بحكمها ، فنسمع العامة يقولون مثلاً :

قالوا لى إيه الشباب ؟ قلت الشباب غنوة

وتسرى هذه العبارة من الأغنية المعروفة مثلاً بينهم كلهم يفهمونه وكلهم يستلذونه وكلهم يستحسنونه ويزيده

حسناً فى أسماعهم وأذواقهم أنه قطعة من أغنية من الأغاني التى يسمعونها ويعجبون بها وأنه مقرون بموسيقى عذبة تكسيه كساء بديعاً ، وتخلع عليه خلة من الطلوة والطرافة والحسن .

وفى الوسط الشعبى فى مصر يتداول العامة كثيراً من الأمثال العامة التى نستطيع أن نستنبط منها فلسفة شعبية دقيقة وطريفة ، كما أن الأوساط الشعبية فى جميع البلاد العربية أيضاً تسرى فيها الأمثال العامة التى تصدر عن فلسفة واسعة الأرجاء سليمة البناء مدعمة الأركان .

وأصحاب المثل العليا وفلاسفة هذه المثل فى العصر الحديث لم يستطيعوا أن يوجدوا لنا فلسفة أرقى ولا أعمق ولا أبعد مدى مما وصلت إليه فلسفة الشعوب إن لم يكونوا أنفسهم قد اشتقوا فلسفتهم من فلسفة الشعوب وفلسفة العامة ثم عزوها إلى بنات أفكارهم أو إلى مثلهم التى يرتوونها أو إلى الفلسفة المثالية التى دفعتهم إليها الثقافة الحديثة وأثرت فيها كذلك .

وفلسفة الشعب وفلسفة العامة تتمثل فى ركن هام من أركانها فى الأمثال العامة . فمن أراد هذه الفلسفة فليرجع إلى الأمثال العامة ثم إلى الأعمال التى ينسجم معها العامة ثم إلى المعتقدات والتقاليد الراسخة فى الوسط الشعبى ثم إلى اتجاه التفكير فى وسط أبناء الشعب ثم إلى الزجل والشعر النبضى الذى يتداوله العامة وينشدونه كلها اجتمع منهم جمع مناسب أو كلها خلوا إلى أنفسهم أو كلها سئمت ألسنتهم الصمت وأرادت صدورهم الترويح والانشراح .

والأمثال العامة قد سبرت أغوار النفس فأنت بدرر فى اكتناه هذه الأغوار وكشف هذه الأسرار ، وتعمقت وحلت ودرست ، فصارت بحق العالم النفسانى للعامة الذى يحلل نفوسهم ويحل مشاكلهم ويفك عقدهم ويسبر أغوارهم ويكشف خباياهم ويميط اللثام عن ألغاز نفوسهم وتحفز روحهم وشرورجسامهم وشراهة شهوتهم ومركبات النفس فى تركيبهم .

« يتبع »

أحمد طه السنوسى